حوار الاعمى والاطرش امام ضريح الولي ــ الفطر ، هو تلخيص مكثف لحوارات المعاناة التي ترسم الخط البياني للوعي الفلسطيني في المنفى . تكسر جدران المخيم ، لانها تكتشف امكانيات الخروج في فعل جماعي هو الجواب الحقيقي على اسئلة الخزان التي طرحها المؤلف ، دون أن يجيب عليها .

هذا الخط البياني ، لعلاقة الخزان ــ المخيم ، بأسئلته ، والذي حاولنا استكشافه من خلال قراءة أعمال كنفاني الروائية ، يؤشر الى ثلاث نقاط رئيسية :

١ ــ الطريق الذي يسلكه مسار الوعي ، الذي تحاول الرواية التعبير عنه . فالوعي بالمأساة حاد ومأسوي وملتهب . يريد الخلاص بسرعة من المقدمات وصولا الى النتائج، الى الحركة التي تعيد صياغة معادلات الواقع . لذلك يأخذ الوعي ثلاثة مسارات متعارضة . فهو من جهة أولى اصرار على بلوغ النتائج من صيحة الصحراء في « رجال في الشمس » الى لقاء حامد بالجندي الاسرائيلي في « ما تبقى لكم » . لكنه يكتشف على أيقاع هزيمة حزيران ضرورة اعادة اكتشاف مقدماته في « عائد الى حيفا » ، ثم كسر جدار المخيم وتحويله من الداخل في « أم سعد » . هذا الانتقال الثاني الذي تمثله « أم سعد » هو نقيض مباشر للمسار الذي سلكه الوعي في مرحلته الاولى . انها عودة الى البساطة الكاملة التي تلتحم في تفاصيل الممارسة اليومية ، دون ان تكشف عن ترابط هذه التفاصيل في داخلها . هنا تكمن أهمية المرحلة الثالثة التي لم تكتمل في أدب كنفاني . مرحلة الوعي بوصفه مسارا تاريخيا ، يقوم بالتقاط العناصر الواقعية المختلفة وصبها في وعي جدلي ، يضم التناقضات في وحدة تتقدم . « فالاعمى والاطرش » ، هي نموذج على الحوارات الفلسطينية (العربية) التي اكتشفت طرقها بالممارسة الحقيقية ، حيث نبقى في الخزان ، لكننا نبدأ عمليا بكسر جدرانه .

٢ ــ تقود هذه النقطة الى اكتشاف العلاقات الداخلية ، التي تقع خلف الشخصيات المتعددة في النتاج الروائي الذي نعالج هنا . هذه العلاقات تنتقل من الخطوط المستقيمة المتوازية ، الى الخطوط المتقاطعة . فالخطوط المتوازية هي مؤشرات الى الواقع . تلخيص مكثف لعناصره عنصرا عنصرا . لكن هذا التلخيص يفتت الواقع داخل الوعي المفتت . ثم حين يقوم بربطه ، يأتي هذا الربط خارجيا . ان هذا لا يعني أن الصوت الحاد المتوتر لصوت الربط يفتقد حدته أو حرارته ، لكنه يبقى وكأنه صراخ مأزقي ، لا يكتشف طريقه الا بالوعي الذي يسقط على الواقع . من هنا أهمية نسج الخطوط المتقاطعة التي تبدأ في « ما تبقى لكم » ، لتندرج نحو رؤية صافية للواقع بأكثر عناصره المتحركة .

٣ ــ ان هذا الوعي ، المرتبط بنمط معين من جدل العلاقات في الرواية ، يعكس نفسه على بنية الرواية ، اذ يقوم بتجديدها بشكل صارم ومحكم . تصبح الرواية بنية يتحاور في داخلها عنصران . اللغة الخارجية ــ السرد ــ تقوم هذه اللغة بالتمهيد للتداعيات التي تصنع الحركة في الرواية الى جانب الحوار . لكنها تبقى حتى في وصفيتها ، بعيدة عن التفاصيل . انه السرد الشامل للحالة العامة التي يعيشها الابطال . تضع التفاصيل مترابطة منذ اللحظة الاولى ، ثم يأتي التداعي والحوار ، ليقيم فواصل الحركة التي تضع التساؤلات وتصيغ الاجوبة . هذه البنية ، هي في آخر تحليل بنية الرواية العربية ، اذا استثنينا محفوظ الذي رسم لنفسه اطارات واقعية خاصة ، لم تعمم ، بل قامت الرواية العربية بكسرها في سبيل التعبير عن بنية اجتماعية مفتتة .

لقد حاول التحليل حتى الآن ، أن يرسم خطا بيانيا لروايات كنفاني انطلاقا من رمز الخزان الذي نجده واضحا في روايته الاولى ، ثم نعيد اكتشافه مع تفاصيل بقية أعماله